العدول في الخطاب القرآني بين الجمالية الفنية والايحاء الدلالي

الأستاذة: حكيمة مزاري

جامعة جيلالي اليابس- سيدي بلعباس-الجزائر

الملخّص:

هذه الدّراسة هي عبارة عن بحث دلالي حول جمالية العدّول في الخطاب القرآني، كما تعمل على إبراز عنصر مهم ومتفرد من حضور اللّغة العربية في مجال الإيحاء وهو قدرتها الفائقة على التّطور والتّجدد، ممّا يجعلها تكسب ظلالا لمعان ودلالات جديدة ما كانت لتكون لولا مغايرتها للمعيارية الصّارمة، والنّسق النّمطي للّغة، كما تبحث هذه الدّراسة في الطريقة المثالية الّتي استعملها الخطاب القرآني من أجل استثمار هذه الظاهرة اللّغوية بغية خلق دلالات فريدة أبهرت العرب أنفسهم وهم أرباب الفصاحة والبيان.

Résumé :

Cette étude constitue une recherche sémantique concernant le phénomène linguistique qu'on appelle « L'Ecart » dans le discours coranique. En soulignant un élément important et distinct en langue arabe ; dans le domaine de la suggestion ; c'est sa capacité suprême de rénovation et développement, ce qui permet à cette langue riche d'acquérir de nouveaux sens et sémantiques différents des modèles typiques de la langue.

Ainsi, cette recherche s'intéresse au style parfait employé dans le discours coranique pour investir ce phénomène linguistique dans le but de créer des sémantiques particulières qu'ils émerveillent les arabes alors qu'ils étaient les plus éloquents.

تكمن جمالية اللّغة وألقها في الخروج عن المألوف فيها، وخرق أفق السّامع وذلك بالإتيان بتراكيب مغايرة لما عُهد منها، هو خروج لكنّه منظم[1]، فقد وعى العرب منذ القدم قدرة لغتهم على التجدّد والتّطور، لتتولد عن هذه القدرات ظلال لمعان جديدة لم تكن موجودة قبلا، فلطالما تميّزت اللّغة العربية بكونها أكثر اللّغات دّقة ومعيارية وخضوعا لقواعد صارمة، ولكن هذا لا يمنع من كونها أجمل اللّغات إيحاء وجمالا في حالة خروجها عن هذه المعيارية، أو ما يسمى بظاهرة العدول في اللّغة.

يعرّف العدول[2] في البدء على أنّه أسلوب، أو ظاهرة أسلوبية يروم صاحبها خدمة جوانب دلالية معينة، لأنّ الإتيان بهذا الأسلوب ليس اعتباطاً، وبهذا يصبح ذا وظيفة أسلوبية ودلالية.

1): التعريف اللّغوي:

لابد من أن تسبق الدراسة الدّلالية بدراسة تأصيلية لمصطلح العدول في المعاجم العربية، بحكم أنه كان لهذا المصطلح حضور واستعمال قويين ،وقد كانت جلّ المعاني التي حملتها هذه المفردة في المعاجم تدور في فلك الميل والخروج عن الأصل، فالخليل يقول في مادّة ع.د.ل: "العدل أن تعدل الشيء عن وجهه فتميله، عدلته عن كذا وعدلت أنا عن الطريق"[3]. ونفس المعاني ذكرها الزبيدي فقال:"فعدل عنه يعدل عدلاً وعدولاً حاد وعن الطريق جار"[4].

2): التعريف الاصطلاحي

لا يكننا أن نورد تعريفاً اصطلاحياً للعدول كمفردة بل كأسلوب، لأنّه لا يتجلّى للمتفحص إلاّ كذلك، فهو خروج عن الأصل أو مخالفة لقاعدة، ولكنّ هذا الخروج عن تلك القاعدة اكتسب في الاستعمال الأسلوبي قدراً من الاطراد رقي إلى مرتبة

الأصول التي يقاس عليها، وكما يكون فهم الترخيص من خلال الاعتداد بالقرائن، كذلك يكون فهم الأسلوب العدولي[5] وهو بذلك شكل من أشكال التأنّق في استعمال اللّغة، ويرى الكفوي أنّ العدول أعمّ من الالتفات[6]، فكلّ التفات هو بالضرورة عدول، ولا يصحّ العكس.

3): العدول والعلاقات الدّلالية

نقصد بالعلاقات الدّلالية تلك الدّوافع التي يقصد من ورائها وظيفية هذا الأسلوب، أو بمعنى آخر، الصفة الفارقة التي يضيفها العدول على المفردة بحيث تعبّر عن معنى معين دون غيره لأنّه "إن كان الأسلوب هو الطريقة المختارة للتعبير عن المعنى، فإنّ لاختيار هذه الطريقة دون غيرها من الطرق الموصلة إلى هذا المعنى مقصداً معيناً يقصد إليه صاحب الأسلوب بجعل العنصر المختار مؤشراً أسلوبياً يشير إلى قصد ما"[7]. ولا جرم أنّ النصّ القرآني باعتباره أفصح النصوص اللّغوية، له من الدّقة في اللّفظ والمعنى ما يؤكّد أنّ كل لفظة معدولة لم تأت جزافاً أو محض رصف، وإنّما جاءت لتأدية المعنى، لو حاولنا وضع مكانها كل المفردات اللّواتي من بنات حقلها الدّلالي، لما أدّت هذا المعنى بهذه الدّقة.

حتى نصل إلى هذه الفوارق الخفية، يجب التعامل مع ظاهرة العدول فضلاً عن كونها ظاهرة أسلوبية، فهي قبل كل شيء ظاهرة دلالية، وتتأسس الظاهرة الدلالية على ما يسمى بنظرية العلاقات الدّلالية، وتقوم هذه الأخيرة على أنّ المعنى المعجمي للكلمة يمكن تحليله إلى عناصر أوّلية، حيث تنشأ العلاقة الدّلالية بين كلمة وأخرى بناءً على التشابه والتقارب[8]، فلا يمكن أن نعدل من أسلوب إلى آخر دون وجود قرينة دالة على الصلة بين الأسلوبين.

4): الخطاب القرآني بين معيارية اللّغة والعدول عنها

جاء القرآن الكريم وفق سمت العرب في كلامهم، وذلك حتى يثبت معجزته الخالدة، حيث أنّه من جنس كلامهم، ولكنه متفرّد في نظمه وحتى يترسخ في الأذهان أنّ الإعجاز القرآني يجب أن يكون إعجازاً بيانياً أدبياً، في أسلوبه ونظمه وبلاغته وفصاحته[9].

كانت الدّلالات التي يزخر بها الخطاب القرآني خاضعة لأساليبه التي تساير القواعد النحوية والصرفية تارة فتكون منقادة لمعياريتها، وتارة تسمو على هذه القواعد حتى ليخيل إلى القارئ أنّها فوق هذه اللّغة، أو أنّها جنس آخر غير هذه اللّغة، لأنّه غنيّ عن البيان أنّ أي قاعدة نحوية أو لغوية تضيق دائماً عن إمكانيات الواقع الحي للغة وثرائه، حيث تتجاوز ذلك إلى رحابة الأساليب الفنية التي تخضع القواعد دون أن تخضع هي للقواعد[10]، والباحث في أساليب القرآن الكريم، وعندما يصادف هذه الأساليب الفنية المعدولة عن الأصل يُخيّل إليه أنّها هي الأصل الذي يجب أن يقاس عليه،خصوصاً إذا استكنه دلالاتها الخفية التي جاءت لخدمتها، سيتأكّد لديه أنّه فضلاً عن الجمالية اللّغوية والسحر البياني اللّذين خدمهما هذا العدول، هناك معنى مقصود بعينه في العبارة يستحيل تجسيده إلاّ بهذا العدول.

5) مميزات الخطاب القرآني في ظلّ ظاهرة العدول

والإيحاء في القرآن صفة ملازمة لألفاظه تقوم بتدقيق معالم الصور التي تعرضها الآية، وتدع المخيلة متحرّكة، سابحة في أبعاد المعاني وأهدافها، إنّ القارئ ليستطيع بحكم ما تحمله لفظة القرآن من قوة في الإيحاء، أن يغوص في المعنى الباطني للآية، وأن يفتح آفاقها ويلج منعرجاتها وما تخفيه من أسرار ومعاني دقيقة، وحينئذ يدرك مزية الإيحاء اللّفظي في القرآن الكريم[11]. الّتي

لا يمكن فهمها إلاّ إذا فُهمت المزية من وراء اختيار هذا الأسلوب دون غيره، وهذا هو ديدن القرآن الكريم عملاً بمبدأ تغير في المبنى يلحقه بالضرورة تغير في المعنى، فالمتلقي للنص القرآني يجب أن يجعل نصب عينيه أنّ أي خروج أو عدول في الخطاب القرآني لا يفترض جمالية في النسق العام للآية فقط، وإنّما قبل ذلك يروم خدمة معنى جليل، لا يتأتى إلا بكبير النظر والتمحيص.

6) علاقة العدول بالتصوير الفنّي في القرآن الكريم

يهدف العدول في الخطاب القرآني إيصال دلالة لم تكن، وإبراز مشاهد أو جزئيات من تلك المشاهد على نحو فريد، وكل ذلك مرتبط بشكل فريد مع أهمّ خصائص القرآن الكريم وهي خاصية التصوير الفنّي، ذلك أنّ ظاهرة العدول هي آلية من آليات التصوير وبينهما علاقة الجزء بالكلّ، فالعدول من أسلوب لآخر هي الجزء الذي يتجسد به المشهد وبالتالي يحقق لنا خاصية التصوير، "فالتصوير هو الأداة المفضّلة في القرآن الكريم، فهو يعبّر بالصورة المحسّة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثمّ يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجدّدة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد"[12].

وحتى نوضح هذه الفكرة، فلنتأمل في قوله تعالى:(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ) الزمر 21، فالمتفحص في الأفعال في هذه الآية سيجد أنّ فعل إنزال المطر جاء بصيغة الماضي بينما الأصل أن يأتي مواكبا للأفعال الأخرى والتي كانت بصيغة المضارع وبقليل من التدبر، سنجد أنّ فعل الإنزال هو سابق عن الأفعال الأخرى من الناحية الزمانية، فإن علاقة حدث نزول المطر بما بعده من أحداث هي علاقة السبب من المسبب، أو العلة بالمعلول، ومن بديهيات الأمور أنّ السبب سابق عن المسبب، وأنّ العلة مقدمة عن المعلول، ومن هنا تدرك سرّ اختيار صيغة الماضي مع نزول المطر، ثم العدول إلى الماضي مع الأحداث أو الأفعال التالية[13]، وهذا الضرب من العدول ساهم في صنع مشهد نابض بالحياة، في تصوير مشهد مألوف لظاهرة طبيعية ولكن هذا الأسلوب أحيا هذا المشهد في قالب تصويري بديع، جعلها كأنها تحدث للأول مرة أو كأنّه يخبر عن أمر لا يفقهه الناس، فهو تصوير باللّون وتصوير بالحركة، وتصوير بالإيقاع، وهو تصوير حي منتزع من عالم الأحياء، لا ألوان مجردة وخطوط جامدة، تصوير تقاس فيه الأبعاد والمسافات[14].

7) جمالية الدلالة في العدول القرآني

يعد المعنى أو الدلالة البؤرة الرئيسية التي تدور في فلكها كل الظواهر اللّغوية أصلها وطارئها، ذلك أنّ كل شيء يدور حول العلامة أو الرمز، بمعنى أن كل الظواهر اللّغوية أو غير اللّغوية تكسب وجودها من خلال الإحالة إلى معنى معين أو ترمز لأمر ما، هذا بصفة عامة. أما الدّلالة في الظواهر اللّغوية فالاهتمام بالمعنى يحتاج إلى أكثر من بحث، ذلك لأنّ اللّغة قائمة على أفكار وأنّ الأفكار بحاجة إلى تجسيم يتم عن طريق الألفاظ، فالفكر اتصال، وكل اتصال ينطوي على الاختلاط، فلكي يصبح الفكر متميزا لابد له من أن يتناثر في كلمات، فنحن لا نحيط بما يدور في فكرنا إلاّ حين نعمد إلى ورقة فنرصف عليها حدودا كانت متداخلة بعضها ببعض[15]، وبعد ان نرصفها تتحول تلك الأفكار إلى معاني، قد تكون سطحية بسيطة وقد تكون عميقة ذات شحن دلالية.

وعندما يكون الأسلوب راقيا، متحكما في زمام اللغة، مالكا لها، تكون الدلالة مزدوجة، فمن جهة تحيل إلى معنى معين طارئ، ومن جهة أخرى تلعب دورا جماليا، وهذا حال الدلالة في الأساليب المعدولة في جميع مستويات الخطاب القرآني، ولكن الفرق والتفاوت يكون فقط في وضوح هذه الدلالة وتواريها في ثنايا الأسلوب.

عملت هذه الأساليب المعدولة على خدمة دلالات إضافية، ولكن هذه الدلالات خدمت الجانب الإفهامي التواصلي، وكذلك خدمت الجانب الجمالي للنص القرآني، فكل أسلوب هو معجز في حدّ ذاته، ولو خلا القرآن إلا منه لما نقص من قدره شيء، فما أشرقه من كتاب يتضمن صدق متحمّله، ورسالة تشتمل على قول مؤديها بين فيه سبحانه أن حجته كافية هادية، لا يحتاج مع وضوحها إلى بينة تعدوها أو حجة تتلوها، وأن الذهاب عنها كالذهاب عن الضروريات والتشكك في المشاهدات[16].

ومن مظاهر جمالية الدّلالة في العدول القرآني، مساوقة المعنى للّفظ، ونعني بذلك أنّ جرس اللّفظ أو الصيغة هو الذي يوحي لنا بدلالته، وهو ما يعطي للنّص جمالية، ومثال ذلك قوله تعالى: (وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ) يوسف 18، فصيغة فَعَلَ هي التي أوحت لنا أنّ الدلالة التي يريد إيصالها هي تعاظم كذبهم حتى كأنّه صار ذات الكذب، فسبحان من سلكه ينابيع في القلوب، وصرّفه بأبدع معنى وأعرب أسلوب لا تستقصي معانيه فهم الخلق، ولا يحيط بوصفه على الإطلاق ذو اللّسان الطلق[17].

ونستنتج من كلّ ما سبق أنّه حتّى نتمكن من الوصول إلى جمالية الدلالة في العدول من خلال الخطاب القرآني، يجب أن ندرك أنّ حضور المستوى الدلالي وتداعيه في أي تركيب لغوي لا يرد ولا يدحض، وأنّ مستوى الدلالي مرتبط بأنظمة التواصل في اللّغة العربية[18]، وعندما نستوعب هذا الأمر، يتوجه البحث من البحث عن الدلالة إلى البحث عن جمالية هذه الدلالة.

ففي الختام، من النتائج التي لا يمكن ردها أو التشكيك فيها والتي يؤكدها كل عمل يختص بالخطاب القرآني، هي أن أي تغيير أو عدول في أساليب الخطاب القرآني يحمل في طياته شحنا دلالية إضافية، ويصبو إلى خدمة معنى معين، فقد ساهم العدول القرآني في تجسيد كل التلوينات الدلالية، كما اتسع ليشمل إيحاءات فذة قد لا يلقى لها القارئ بالا، ولكن بعد تمحيص ذلك العدول يصادف تلك اللّطائف.

قائمة المصادر والمراجع:

1)- نعني بالمنظم ذلك الخروج الذي يحافظ على المعاني بغية خدمة دلالات أخرى وليس مجرد الخروج عن المعنى والمبني لمجرّد مخالفة قواعد اللّغة.

2)- آثرنا مصطلح العدول عن الإنزياح والانحراف لأنّه أليق بالخطاب القرآني من جهة، وانّ الانزياح والانحراف ألصق بالدّراسات الأسلوبية ودراستنا دلالية.

3)- الخليل، معجم العين، ج 2، ص 37.

4)- الزبيدي، تاج العروس، ج 29 ص 447.

5) تمام حسن، البيان في روائع القرآن–دراسة لغوية أسلوبية للنص القرآني–عالم الكتب،لبنان،ط1،1993، ص347.

6) الكفوي، معجم الكليات،تح عدنان درويش،محمد المصري،مؤسسة الرسالة،لبنان،ط2ن1998 ص201

7) تمام حسن، البيان في روائع القرآن، ص489.

8) رضوان ميسي عبد اللّه، الفكر اللّغوي عند العرب، دار النشر للجامعات،القاهرة،مصر،2007 ص 451.

9) عبد العظيم بن ابراهيم المطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته، مكتبة وهيبة، مصر، ط1، 1992، ص 137.
10) نصر حامد أبو زيد، الإتجاه العقلي في التفسير –دراسة في قضية المجاز في القرآن عند المعتزلة–المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط5، 2003، ص101.
11) عمر السلامي، الإعجاز الفنّي في القرآن الكريم، نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم عبد اللّه، تونس، 1980، ص65.
12) سيد قطب، التصوير الفني في القرآن الكريم، دار المعارف، مصر، 1966، ط1، ص 34
13) جلال عبد الله محمد سيف الحمادي، العدول في صيغ المشتقات في القرآن الكريم،–، بحث مقدّم لنيل شهادة الماجستير، جامعة تعز، اليمن2006/2007ص149
14) سيد قطب، التصوير الفني في القرآن الكريم، (م.س.ذ)، ص35
15) هنري برجسون، الطاقة الروحية، تر سامي الدروبي، مطبعة دار الرائد للطباعة، القاهرة، مصر، ط1،1963.
16) أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، تح احمد صقر، دار المعارف، مصر، دت، دط، ص03.
17) بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح محمد أبو الفضل، دار الجيل، بيروت، ج1 ، 1988، ص05.
18) عبد الجليل مرتاض، في رحاب اللغة العربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص128.